إ٢٠٠٢/٢٣

قداس عيد البشارة

صباح الاثنين ٢٠ آذار ٢٠٠٢ وبمناسبة عيد بشارة سيدتنا والدة الإلـــه الفائقـــة القداسة والدائمة البتولية مريم، ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطران الياس عودة خدمة القداس الإلهي في كنيسة بشارة السيدة في الأشرفية، ورقى خلال القـــداس الشماس مرقس غاليه إلى درجة الكهنوت.

بعد الإنجيل الإلهي ألقى سيادته العظة التالية:

"نحن خطأة ولا أحد يدّعي القداسة الكاملة. قال الرب لأولئك المعلّمـــين الكتبـــة والفريسيين، الذين أتوا ليدينوا المرأة الخاطئة ويرجموها بالحجارة: أيها المعلّمون "مـــن كان منكم بلا خطيئة فليرمِها أولاً بحجر" (يوحنا ٨: ٧). نحن خطأة. كلنا بحاجة إلـــى التوبة، إلى الرجوع إلى الله. نحن خطأة لأننا لا نرى الله في كل حين، لا نصلّي في كل حين، لا نرتاح إلى الله في كل حين، لأننا نرى أمورًا كثيرة أهمّ من الله. كلنـــا خطـــأة وكلنا نكتشف عند اللحظة التي فيها ينهار كل البنيان، التي فيها نواجه الموت، أنّ كل ما فعلنا لا يعني لنا شيئًا إلاّ إذا كان مرضيًا لله وكان الله الدافع إليه. هذا ما حصل مع آدم في البدء عندما أراد أن يصبح إلهًا، وكم من الناس يظنون نفوسهم آلهة! كم من النـــاس يعتبرون نفوسهم جبابرة! كم من الناس ينظرون إلى نفوسهم وكأنها ملأى بالقوة! لقـــد خاب آدم قديمًا فلم يصر إلهًا كما اشتهى. لقد اشتهى آدم أن يترك الله. ظنّ، بسبب القوة التي وضعها الله فيه، أنه يستطيع أن يحيا بدون الله، وهذا ما يحصل معنا كل يـــوم. إن أُعطينا صحة وحيينا فيها، ننسى أن الله معطيها ونظن أن الصحة مصدر وجودنا. إذا كنا نملك المال، وتراكَمَ المالُ، ننسى الله ونظنّ أن المال المتراكم هو مصـــدر حياتنـــا وسعادتنا، ونعتبر أنفسنا عظماء. من يملك المال الوفير يظنّ نفسه عظيمًا.

آدم، منذ البدء، غرّته الحرية والقوة وكل شيء منحه إياه الله. لكن الإنسان، متى علم أنه سيموت بعد فترة قصيرة، يتلاشى سحر المال والجاه والقوة في عينيه ويـــروح ينتقل من مكان إلى آخر في العالم طلبًا للشفاء، ويدرك أن كل ما له مـــن الله وإن لـــم يرجع إلى الله فهو لا شيء.

اليوم أتى الملاك إلى مريم التي أرادت أن تكون مع الله في كل حين وأن تسكن مع الله باستمرار ليسكن الله فيها، فأتى الله إليها لأن من يتقدّم خطوة نحو الله، يهرع الله إليه، شرط أن تكون خطوته صادقة. لكن الإنسان يجرَّب ممّن حوله وينسى الله.

العذراء سكنت الهيكل لتصبح هيكلاً، كما المؤمن الذي يدخل هيكل الله ليصبح هيكلاً لله مقدَّسًا طاهرًا. أتى الله إليها بواسطة رئيس الملائكة جبرائيل. أتى ليخبرها بصيرورة الإله إنسانًا لكي يصير آدم إلهًا. الله يريدك قويًّا، كاملاً، موجودًا. الله يفرح بك ويبتهج لكنه لا يبتهج بخطيئتك. الله الطاهر القدوس لا يفرح بقباحة النفس. أراد الله أن يصبح إنسانًا ليعيد آدم إلى الألوهة. رئيس الملائكة بشّر العذراء قائلاً لها: "ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمّينه يسوع. هذا يكون عظيمًا وابن العلي يدعى" (لوقا ١: ٣١-٣٢). وسيقال لها أيضًا "وأنت أيضًا يجوز في نفسك سيف" (لوقا ٢: ٣٥) لأن ابنك هذا الكامل، النازل من السماء، الذي يريد أن يعيد الإنسان إلى كماله، إلى الألوهة، لن يتحمل الخطيئة، لذا سيتألم مع كل متألم وجائع وعطشان ومع كل إنسان تحز في نفسه الخطايا لتقتله، لكنه سيقتل الخطايا وسيتغلّب على الشيطان، سيميت الجسد، المندفع نحو شهوته، على الصليب وسيقيمه جسدًا جديدًا، قويًا، لا تستطيع الخطيئة ولا إغراء الشيطان أن تستعبده. أراد يسوع أن يجبل الإنسان من جديد، أن يلده لا بالشهوة واللذة ومن التراب بل من الله الإنسان لكي يصبح الإنسان به إلهًا، فلا تعود للموت غلبة عليه. إذا تشبّه الإنسان بالمسيح، يجعله اللهُ الخالقُ، القادرُ على كلّ شيء، مسيحًا. والإنسان يتشبّه بالمسيح عندما لا يسيء استعمال النِعَم الممنوحة له من الله. إذا أساء الاستعمال فإنه يخطئ، لأن من يخطئ إلى نفسه يخطئ إلى نفسه والآخر ومن يخطئ إلى الآخر يخطئ إلى نفسه أيضًا: "وصيّة جديدة أنا أعطيكم أن تحبّوا بعضكم بعضًا. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا" (يوحنا ١٣: ٣٤). لقد علّمنا الله أن نحب الآخر لينتعش بهذه المحبة، وهذا يتطلّب منا أن نقتل الأنا، مصدر الخطيئة فينا. علينا أن نحافظ على كل نعمة معطاة لنا من الله وأن نثمّرها ونجعلها مباركة بوجود الله في حياتنا. علينا أن نصلب أجسادنا وأنفسنا وأن نتغلب على كل خطيئة فينا لنخلص. هذا ما فعله يسوع المسيح بجسدنا الذي اتخذه: رفعه على الصليب ليقدّسه، وإذا ما صلبتُ الجسدَ والخطيئةَ على الصليب، يقدسُني المسيحُ وأخلص.

المسيحي الحقيقي الذي يقبّل الصليب ويكرّمه يعني، بعمله هذا، أنه مستعد للموت على الصليب من أجل الانتصار على خطاياه وانحرافاته وكل ما يعيق خلاصه.

اليوم، تحلّ نعمة الروح القدس على الشماس مرقس لتُدخلَه في درجة الكهنوت. الكاهن يحمل بين يديه جسد الرب، لذلك على المؤمن الحقيقي احترام الكاهن وتقبيل يده لأنها مقدّسة بالجسد المقدس الذي تحمله.

سوف يقف الأب مرقس أمام مائدة الرب وسيصلّي ويتضرّع إلى الله لكي يرسل روحه القدّوس على الخبز والخمر ويحوّلهما إلى جسد الرب ودمه. كم من النقاوة والطهر والصلاة الحارة يتطلّب هذا! فإذا لم يتهيّأ الأب مرقس بالصلاة والصوم سيتحوّل الخبز والخمر إلى جسد الربّ ودمه لأنّ هذه الاستحالة تتعلّق بالله وحده، لكن السؤال المهم: كيف يمكن أن يقف إنسان أمام جسد الرب ودمه وهو يعلم أنّه متّسخ النفس وغير مستحق؟ تعلمون جميعًا أن على المزمع أن يتقدّم لتناول جسد الرب ودمه أن يعدّ نفسه ويصوم ويصلّي بحرارة ويقرأ صلاة الاستعداد للمناولة المقدسة بعد أن يعترف للكاهن بخطاياه، فكيف بالكاهن؟ على الأب مرقس وكل كاهن أن يصلّي بحرارة ليقدّس نفسه والآخرين. الكاهن يقف أمام الله في كل حين لذلك يجب أن يكون الله منغرسًا في قلبه ومشعًّا. على الكاهن أيضًا أن يكون كالملاك جبرائيل مبشّرًا كلَّ إنسان أن بإمكانه أن يلد يسوع ويجعله ينمو في قلبه. بالمعمودية وُلد الإنسان الجديد في المسيح. ورسالة الكاهن أن يجعل هذا الإنسان مدركًا لهذه النعمة فيغذّيها وينمّيها في قلبه.

ومن أبرز الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الكاهن الصبر. أليس الأب صبورًا على أبنائه؟ فإذا كان الأب أو الأم يتعبان لتأمين تربية مدنية صالحة لأبنائهما، فكم يجب أن يكون تعب الأب الروحي الذي عليه أن يربّي أبناءه تربية روحية؟ الكاهن يتعب في تربية أولاده ويصبر عليهم ويتمنّى أن يفرحوا بحضور الله فيهم. ولكي يصبر عليهم يجب أن يراهم أولاً وأن يحبّهم. لذلك أتمنى على الأب مرقس وكل كاهن راعٍ أن لا يترك بيتًا، حيثما كان في رعيته، دون أن يعرف كل شخص فيه ويتابعه بمشاكله وأفراحه وأحزانه لأنه هو الذي يبارك الأفراح ويُبعد الأحزان بالتعزية ويساعد على طرد الشرور من القلوب والبيوت.

وإذا تحلّى الكاهن بهذه الصفات أم لم يتحلَّ، إذا ما دخل بيتكم فهو محترم لأنه يدخله باسم الله، وهو ممثل الله أمامكم. في الاحتفالات العالمية نرى ممثلين، لكننا لا نعرف إذا كانوا ممثلين لائقين بمن انتدبوهم، لكنهم يُحترمون ويكرَّمون بسبب من يمثّلون. الكاهن يمثّل الله ويجب أن يُكرَّم بغضّ النظر عن استحقاقه أو عدم استحقاقه.

في هذه الأيام نعيش نحن اللبنانيين في قلق تعدّدت أسبابه التي نسمع عنها من المسؤولين والاختصاصيين العارفين، لكن النتيجة واحدة: قلق عند الشعب وبطالة وفقر وهجرة لمَ لا نقيم نحن المؤمنين صلوات من أجل وطننا؟ لمَ الاتكال على السياسي والاختصاصي؟ لمَ لا نتّجه إلى الله من أجل أن يحفظ وطننا وينجّيه ممّا قد يحصل له؟ فكما نصلّي من أجل استدرار المطر وطرد الأوبئة ودرء الأخطار، لمَ لا نصلّي من أجل أن ينقذنا الله ممّا نحن فيه؟ لبنان يخلص إذا بقي فيه مؤمنون حقيقيون ولو قليلون.

سوف نشهد حدثًا تاريخيًا هو اجتماع الملوك والرؤساء العرب، وعلينا أن نصلّي كي تصدر عن هذه القمة قرارات تليق بالإنسان وترفع من شأنه. وهكذا يفتخر لبنان بكونه البلد المضيف. لكن وطننا يهان عندما لا يُنظَر إلى الإنسان وكرامته إن في لبنان أو في فلسطين أو في أيّ بلد آخر، وعندما يتسلّط أقوياء هذا الدهر والمتمسّكون بأموالهم ومصالحهم على الشعوب المستضعَفَة ويقتلون الإنسان في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان ويهدّدون الصغار ويستكبرون على الضعفاء.

يجب أن نصلّي لكي ينتفض الضمير عند من لهم ضمير، أمّا من لا يتحرّك ضميرهم فلنطلب من الله أن يحيي ضمائرهم لأن من يرى الإجرام الحاصل في فلسطين ولا يدمع ولا ينفعل فليس بإنسان. ولا نطلب منه البكاء على من يموتون فقط لأنهم في رحمته، إنما على الضمائر الميتة في من يدّعون العلم والمعرفة والتقدّم.

يجب أن نصلّي من أجل أن نكون واحدًا في هذا البلد. إنّه وقت الصلاة والمحبة، وقت الحقيقة والمصارحة، ونتمنى أن لا يُؤذى أحد لكننا نأمل أن يُشار إلى من يؤذي الوطن والمواطن. نتمنى أن يُعلَن من تسبّب ويتسبّب بما وصلنا إليه. نتمنّى أن يُحاكم السارق، كلّ سارق ولو كان مسؤولاً كبيرًا أو صغيرًا، ولو كان مدعومًا من هذه الجهة أو تلك، لأن مصلحة الوطن فوق مصلحة أي إنسان. لكننا لن نشهد اليومَ الذي سيُحاكَم فيه مثل هؤلاء، لذلك يجب أن نصلّي وخاصة من أجل القضاء والجيش، الجيش الذي نحترمه لكننا نتمنى إبعاده عن السياسة. الجيش هو المحامي عنّا الذي نفرح به ونرتاح إليه، لكن انغماس الجيش في السياسة يسيء إليه. أمّا القضاء، فإذا اختلّ في بلد ما فَقَدَ البلدُ هيبته، ونحن نصلّي لكي يحافظ القضاء في لبنان على نزاهته واستقامته. كلّنا نعلم أن أحكامًا صدرت مؤخرًا على بعض الأشخاص وقيل من عارفين أنها لم تكن أحكامًا عادلة. أنا لا أعرف أين الحقيقة لكني أخاف من أن تكون السياسة تركت بصماتها على القضاء، لذلك أصلّي من أجل تحريك ضمائر القضاة كي تكون أحكامهم عادلة وغير

جائرة، لأنه متى اختل القضاء ضلّ المجتمع. أصلّي كي يعود كلّ قاضٍ إلى ضميره ولا ينظر إلى كرسيه ومركزه ومصالحه المادية وغيرها. أصلّي كي لا يُظلم أيّ إنسان.

في هذا العيد المقدس، نضرع إلى العذراء والدة الإله وإلى ابن العذراء وربنا أن نرى تباشير سلام آتية نحو هذه المنطقة لكي يكون كلّ منا ملاكًا يبشّر الناس بالسلام الآتي. دعائي اليوم أن تُزرع الشجاعة والقوة في قلب كلّ من يعرف المسيح لكي يتفوّه بكلام الحق في أوانه وفي غير أوانه.

أخيرًا أعايدكم جميعًا في هذا العيد المبارك وأشكر كل من ساهم في إعادة هذه الكنيسة إلى رونقها وجمالها لنعود إلى الصلاة فيها والفرح. باركهم الله جميعًا وأغدق عليهم نِعَمَه وقدّسهم وأبعد الشر عنهم وعن هذه الكنيسة وعن كل مكان، آمين.